المعنى والتسييق والسيرورات *

أليكس موتشيلي

جان أنطوان كوربلان

فاليري فيرناندیز

ترجمة محمد يشوتي

تتمثل الأهداف المعرفية في فهم :

- ماهية التواصل الشامل.
- كيف يولد معنى التواصل الشامل من خلال تسييقه.
- الكيفية التي من خلالها يتوقف تنوع المعاني على مختلف السياقات المرجعية المعتمدة.
- كيف أن التواصلات الشاملة تتدخل في السياقات وبالتالي تغير معنى الظواهر التواصلية التي تطفو على السطح.

1- التواصل الشامل

عندما نوسع من الدائرة التي من خلالها نطل على ظواهر التواصل ندرك أن "تواصلا ما" يحدد بكونه كل "إنتاج" إنساني، يمكن قراءته من خلال مقامه ولا يستمد معناه إلا من هذا المقام.

تعتبر علوم التواصل دائرة التواصل كل ما يعود إلى التعابير الناجمة عن فاعلين اجتماعيين وحاملة لـــقصدية قابلة للتحليل من وجهة نظر ملاحظ / قارئ فطن، أي قادر على فهم المعنى ضمن سياق ملائم بالنسبة للفاعلين المعنيين. وتعد هذه "التعابير" أقساما لتواصل مبثوثة في مقاطع متفاعلة فيما بينها ضمن صيغة تواصلية أشمل.

إن الفاعلين الاجتماعيين المعنيين مختلفون في الهوية والتعابير على حد سواء. فمثلا يمكن أن ننظر إلى الورشة التي تشيدها مقاولة ما باعتبارها تواصلا قابلا للقراءة، أي يمكن أن نجد له معنى له ضمن سياق ملائم (مثلا سياق نموه وصراعه التنافسي مع مقاولات أخرى في نفس المجال). ومن جهة أخرى، فإن تنظيم هذه الورشة وكذا القوانين المنظمة للعمل بها... هي أيضا تواصلات تنظيمية تكمن دلالاتها في سياق الثقافة التنظيمية، وفي عادات العمل داخل هذه المقاولة والمبادلات الداخلية حول

تحديد سير الإنتاج. وكذلك الأمر مع مدرسي إعدادية ما. فعندما " ينسى" هؤلاء أن يستعملوا الحواسيب الموضوعة رهن إشارتهم لإدخال نقط تلامذتهم في نظام معلوماتي جديد يصلح للمراقبة الفردية لكل تلميذ، فإن هذا السلوك الجماعي يعد تواصلا يجب البحث عن معناه في إطار السياق الملائم (يمكن أن يتمثل هذا السياق في المقتضيات غير المقبولة لمشروع المؤسسة الذي تعسف مدير الإعدادية عندما أقدم على إعداده وحده...).

وعلى هذا الأساس فإن معنى التواصل عندنا أكثر شمولية من معناه المعتاد المنحصر في المنطوق والمكتوب والشبه لغوي، أي تلك العناصر التي تمثل أشكال التبادل الأساسية بين الأفراد. إننا نوسع من دائرته لكي يشمل أيضا أفعال وسلوكات الفاعلين الاجتماعيين، ويشمل كذلك ما يطلق عليه "ما لم يتم توصيله "« les non-communications » أي ما كان ممكنا فعله أو قوله أو كتابته... في الظرف المعني، ولم يتم فعله أو قوله أو كتابته والذي يحمل معنى ما (الأطباء ورؤساء المصالح والمساعدون الذين تمت دعوتهم من لدن مديرية مصلحة التمريض قصد مناقشة مشروع المصلحة ولم يحضروا الاجتماع، فهم بهذا السلوك إنما يعبرون عن عدم اهتمامهم بالمشروع، بل ربما عن شجبهم لمثل هذا المشروع في المستشفى). وهكذا، فإن كل "عدم تواصل" هو في نهاية الأمر تواصل يمكن قراءة دلالته إذا عرفنا سياقه الخاص. فالتواصل إذن هو بمعنى ما كيان "مبني" « construit » نابع من وضعية تفاعل وتداخل مجموعة فاعلين، مبنى يأخذ معنى ضمن السياق الذي يحدد تخومه.

لا يمكن إذن، كما سبق أن رأينا في الأمثلة السابقة تحديد جزئية تواصلية خارج مفهومي السياق والمعنى. وبهذا نجد الآن أنفسنا في عمق نظرية سيرورة التواصل التي سوف نبين كيف أن معنى التواصل يرتبط بالسياقات التي تحتويها، وكيف أن الإشتغال على هذه السياقات يقود إلى تغيرات في المعنى والتواصلات الناتجة عنه.

لكي ندعم براهيننا ونتقدم في "نظريتنا عن السيرورة"، سنعتمد على بعض الأمثلة المأخوذة من اللسانيات وعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي، لأن هذه التخصصات ساهمت في تقدم علوم الاتصال، وقادرة على منحنا قاعدة صلبة للتفكير. إلا أن هذه الأمثلة ليست تزكية للتحديد الضيق للتواصل باعتباره تبادلا بين الأفراد. التواصل ليس فقط ظاهرة يجب التفكير فيها على المستوى الفردي. فعلينا أن نبتعد دوما عن هذا المستوى الذي ترسخ فينا (لأنه مستوى يخص تجربتنا الفردية اليومية) ونحاول التفكير في التواصل كظاهرة ناجمة عن تعابير غائية متعددة لفاعلين اجتماعيين في وضعية معينة.

1- التسييق la contextualisation

لقد أشارت أبحاث كثيرة إلى الأهمية الأساسية للتسييق في تكوين معنى التواصلات. سنُذكر ببعض منها في مجال اللسانيات كما في مجالي علم النفس وعلم النفس الاجتماعي.

2. 1.- يتوقف معنى كلام ما على السياقات التي يرد فيها.

بالنسبة للسانيات" التلفظية" مثلا يتم بناء معنى الأحاديث (ما يريد المخاطب قوله) في مجمله بوضع هذه التواصلات ضمن "سياق ما". فالمعنى يتولد دائما من " تحديد رابط ما بين شيئين "، وأول عناصر هذا الوضع العلائقي هو بطبيعة الحال السياقات التي يتم فيها التبادل. فالمتكلم يبذل جهدا باستعماله مجموعة من الإشارات لتوضيح السياق الذي يراد من مخاطبه أن يتلقى وفقه خطابه. كل فعل لغوي يندرج ضمن "سياق العرض" أي أن ما نقوله يجب أن يتواجد في وضعية تواصل(1). ما نقوله يتحدد بالنسبة للظروف الخاصة بالكلام. وتتمتع الوضعية التي يعرض في إطارها تواصل بأهمية أساسية. فالسياق مانح المعنى، والمعنى يولد من وضع فعل التواصل في علاقة بمجموع العناصر المحيطة. إن تحديد الروابط هذه ينجزها مختلف الفاعلين المشاركين في التواصل. فكل محاور في وضعية تواصل يؤدي عملا يمكن تسميته "عمل تأويل أو استدلال". فهو يضع العناصر التواصلية للتبادل في علاقة بالمقام، ومن ثم يستنتج المعنى..

نلاحظ على مستوى اللسانيات أنه في كثير من المحادثات توجد جمل عديدة يشوبها الغموض على مستوى فك الرموز اللسنية. فالسؤال مثلا: هل يمكنك مناولتي الملح؟ لا يُفهم منها إطلاقا أن الأمر يتعلق بسؤال عن القدرة الفعلية للشخص الذي نتوجه. ففي كثير من الحالات فإن السياق وحده يمكن متلقي الخطاب من إعادة صياغة الدلالة الفعلية للسؤال الذي لا يعد في حقيقة الأمر سؤالا.

مجموعة من العلامات: تمكن النبرات والتأكيد والنظم والملفوظات النمطية... المسماة "إشارات السياق" المتحاورين من التعرف على "الخطاطة التأويلية التي يستعملها المتحدث. وهذه العلامات في عمومها من طبيعة ثقافية، فهي بالتالي مكتسبة. إنها تشكل جزءا من المعرفة المشتركة للمتحدثين(2). ويسوق فيليب بروتون في ما يخص التواصل بين الأفراد مثالا لـــ "إعادة ضبط الواقع" « recadrage du réel » (وهي تقنية اكتشفها لدى الخطباء في عملية توظيف السياق التاريخي أثناء تهييئهم للحضور(3)). "عندما بدأ الناس يؤاخذون المحامي جاك فيرجيس على تعاطفه مع واضعي

القنابل، أجابهم بأن "لفظ "إرهابي" اخترعه الألمان زمن الاحتلال". بهذه المرجعية التاريخية التي تعيد الأذهان إلى إطار زمني آخر مغاير تماما، أسقط الحمولة السلبية لتهمة التعاطف مع الإرهاب.

2- 2.- " المعنى ليس منعزلا عن شروط إنتاجه"

إن سيلفان أورو هو صاحب هذه الحقيقة الثابتة(4) . وهي أيضا ما تعلمناه من الأنتربولوجيين وعلماء الاجتماع. فحينما أقول " إن المطر يهطل " ، فإن الأمر يتعلق بجملة تنتمي إلى اللغة الفرنسية، وهي جملة سليمة. فهل تعني هذه الجملة شيئا؟ نعم هي كذلك إذا نطقت بها الآن وأنا واقف أمام النافذة متوجها بكلامي إلى شخص يقف بجانبي. وعكس ذلك لن تكون هذه الجملة سوى مثال نحوي لا أقل ولا أكثر. فخارج السياق ليس هناك ملفوظ. فلكي يكون هناك " فعل الكلام " لا بد من توفر مجموعة من الشروط السياقية القادرة على إنجاز هذه الأفعال. وهو أمر ناقشه التيولوجيون ورجال القانون قبل أوستن بكثير. فلكي تصبح مثلا هذه الكلمات « égo te baptisomo » " أعمدك" فعل تعميد حقيقي، لابد من توفر مجموعة من الشروط تحدد هوية المتكلم ومكان الكلام والشهود، وحتىطريقة العرض. نلاحظ هنا ظهور فكرة نسق التواصل. فما يُلقى من كلام يندرج ضمن مجموعة تواصلات أخرى : حضور ممثل الكنيسة، المتبنين وشهود آخرين، الماء...فما يمكن اعتباره أجزاء من السياق العام هي أيضا تواصلات وهي تقول أشياء مثل:"نشهد أن حضورنا يعني أننا هنا من أجل فعل تعميد". هذا التفكير في السياق العام يبين لنا ظاهرة سوف نعثر عليها لاحقا ومفادها أن المعنى يأتي في غالب الأحيان نتيجة تداخل مجموعة من السياقات تتحقق مجتمعة، وهو الأمر الذي تحجبه عنا عاداتنا الثقافية والفكرية.

إذا أدرجنا لغة ما ضمن سجل يضم كل اللغات المستعملة (وهو سياق جد طبيعي لكنه يفلت منا)، فإننا سنكشف عن أحد المعاني الأساسية للغة وهي أنها جهد مجموعة بشرية معينة من أجل التداول في شأن العالم وخلق روابط اجتماعية داخلية.

1-الضبط وإعادة التأطير

3. 1. مدرسة بالو آلتو.

ركزت مدرسة بالو ألتو على الفكرة التي مؤداها أن معنى تواصل ما يتوقف أساسا على السياق المنجز داخله. ولقد أكد العلماء المنتمون إلى هذه المدرسة على أهمية السياق من خلال استخلاص مفهوم "التأطير" استنادا إلى السياق ذاته. ذلك أن الاهتمام ينصب ، من منظور نسقي

وبنائي، على الوضعية الكلية والراهنة وعلى طريقة استمرارها (الطريقة التي تشتغل بها)، وبالتالي الطريقة التي يمكن أن تغير بواسطتها(5). يقول فادزلافيك: "إن الظاهرة تظل غير مفهومة ما دام مجال الملاحظة ليس واسعا لكي يدمج السياق الذي يتضمن الظاهرة. فعدم القدرة على إدراك تشكل وتعقد العلاقات بين فعل ما والإطار الذي يندرج ضمنه، بين جهاز ما ومحيطه، يؤدي بالملاحظ لشيء "غريب" إلى منح موضوع دراسته خصائص يمكن ألا تكون متوفرة فيه..."(6). إن هذا "السياق" عنده هو أولا وأساسا سياق التفاعلات بين الفاعلين المعنيين، ذلك أن "لا شيء يمكن التعامل معه بشكل منعزل، فكل شيء وكل كائن إنما يوجد ويتموقع داخل مجموعة أخرى من العناصر المتفاعلة معه". وكما هو واضح فإن فادزلافيك يفضل سياقا بعينه، ويتعلق الأمر بسياق التفاعلات. لكن لا شيء يمنع من توسيع هذا المفهوم لأصل المعنى المعتمد على السياق وذلك بإدخال مجموعة أخرى من السياقات المكملة لسياق التفاعلات وحده.

تتمثل إعادة التأطير عند فاتزلافيك في إعادة تحديد الموقع السابق أو المرور إلى رؤية فوقية une métavue للموقع من أجل تغيير معنى العلاقات بين الفاعلين. هكذا يكون مفهوم "إعادة التأطير" أساسيا لكل الدراسات حول تغير السلوك. فمن أجل تغيير سلوك ما يجب بالأساس تغيير النظام الذي يندرج ضمنه. ذلك أن السلوك المعني يتخذ معنى جديدا داخل الإطار المعدل. حينها لن يصبح عنصرا مميزا عند الفاعل. ويتضح من هذا أن مدرسة بالو آلتو كشفت أن سلوكات التواصل مرتبطة بالمعنى الذي تأخذه لدى الفاعلين في السياق العام الذي تدور فيه. يتعلق الأمر هنا ـــ وهو ما تجب الإشارة إليه ـــ بنظرية في التواصل (أو السلوك) البشري مؤداها أن التواصل مرتبط بالمعنى الذي يأخذه في السياق المرجعي العام للفاعل.

3. 2. إعادة التأطير تتم عبر بناء ذاتي

إن سياق التفاعلات التي يتحدث عنه فاتزلافيك سيكون الإمساك بها فعليا، والحالة هذه، أمرا مستحيلا، بمعنى أن ذلك سيظل بعيدا عن قدرتنا على التدخل في مكوناته الموضوعية. وبناء عليه يجدر بنا اعتبار السياق موجودا أولا كواقع ذاتي، وأن إدراك الذات له هو الذي يجب تطويره.إننا هنا في قلب التصور البنيوي. فالإطار العام لإستراتيجيات التغيير في تدخلات مدرسة بالو آلتو تتمثل في التدخل على مستوى تمثلات سياق العلاقات وهو ما يجعل معنى السلوك الموجود في هذا السياق يتغير أوتوماتيكيا.

إن وجود الميتاتواصل la métacommunication دليل يمكن اعتماده لإثبات صحة الدور الذي تلعبه السياقات في تكوين المعنى. ولعل مدرسة بالو آلتو هي التي أثارت انتباهنا إلى دور الميتاتواصل. فهذا الشكل من التواصل يسمح للفاعلين أن يتخذوا من هذه التبادلات ذاتها موضوعا لأحاديثهم. وفي تركيز المتحاورين على الأحاديث ذاتها باعتبارها موضوعا للتحاور، فإنهم يمنحون أنفسهم إمكانية الخروج عن السياقات التي كانوا هم أسرى داخلها، وبالخصوص سياق علاقاتهم وتفاعلاتهم الآنية. وبهذا ستكون لديهم القدرة على إيجاد دلالات " جديدة" لتواصلاتهم، دلالات لا تظهر لهم قبل هذا الجهد وهذا التموضع في سياق مشترك للتحليل. إن التحكم في السياقات يغير معنى السلوك.

3. 3) تقليب السياقات يغير معنى السلوك

إن العملية العلاجية التي تعتمد على" الإيعاز المناقض" l'injonction paradoxale تساهم في البرهنة على بناء المعنى عن طريق السياقات. إن راحة الإنسان في تصور مدرسة بالو آلتو تتوقف على المفهوم الذي يكونه عن محيطه. فالمعاناة لا تأتي من مرض ما بقدر ما تكون نتيجة للتصور الذي يكونه عن العالم الذي يعيش فيه. فـــ" الإيعاز المناقض" وسيلة علاجية تتمثل في أن يطلب من المريض أن يتبنى إراديا السلوك الذي يعتبر العلامة الملموسة لمرضه، أي يطلب منه ممارسة سلوكه المرضي إراديا. بهذه الطريقة يخلق المعالج وضعا مناقضا، حيث يكون قد عرض عليه أن يتصرف في سلوك "مرضي" يفلت منه كلية. وهكذا إذا تمكن المريض من إتباع ما أمر الطبيب النفساني به، فإنه يكون قد قدم الدليل على أنه يستطيع التحكم في تصرفه، وأن هذا السلوك لا يفلت منه حقيقة، (السلوك هنا لم يعد له نفس المعنى). لنرى ذلك في المثال التالي:

"أتتنا أم بابن لها يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاما، دلت الفحوص الطبية أنه ذهاني، وقد قضى الجزء الأكبر من العشر سنوات الأخيرة في مصحات المرضى النفسانيين أو تحت العلاج النفسي المكثف. كانت الأم تعتقد أن ابنها على وشك الدخول في حالة ذهانية جديدة. في هذه الفترة كان يعيش حياة هامشية في غرفة صغيرة ويتابع في الجامعة درسين كانت نتيجتهما تتجه نحو الفشل. كان يحدث في القسم مقاطعات "مؤدبة" تشوش على السير العادي للدروس. إن المشكل في نظره يكمن في عدم التفاهم منذ زمن بعيد بينه وبين والديه بخصوص كفالته المادية. فلم يكن يستسيغ أن يتكفل أبواه بدفع ثمن كرائه ونفقاته الأخرى "كما لو كان صبيا". كان يفضل أن يتوصل منهما بقدر مالي شهري يقوم بصرفه بنفسه في ما يحتاج إليه. كان أبواه من جهتهما يعتقدان أن ماضيه وتصرفه الحالي يبينان أنه

غير قادر على التكفل بهذه المسؤولية وأنه يمكن أن يبذر المصروف الذي يأخذه منهما. كانا يفضلان إذن منحه بتقتير كبير قدرا كل أسبوع وفق "رصانته أو " حمقه" دون أن يكون هذا الشرط مصرحا به. و لم يكن الإبن بدوره يعبر بصراحة عن غضبه من هذا الأمر ولكنه كان ينطوي على نفسه في نوع من اللعب الذهاني الغريب مما جعل أمه أكثر من أبيه تعتبر هذا دليلا آخر على عجزه عن تسيير حياته الخاصة، وكانت تخشى أن يصبح إدخاله المكلف للمستشفى من جديد أمرا حتميا يكلفهم كثيرا"(7).

يقول المعالج للشاب بحضور أمه إنه كان محقا في تصرفه (تفاعل فعل التأييد والتشجيع)، فتلك هي الوسسيلة الوحيدة التي تسمح لوالديه بإشباع رغبتهما في الإعتناء به كصبي (نلاحظ هنا عملية إعادة تأطير الوضعية وبالتالي فهما جديدا للسلوك). ويطلب منه أن يكون ملحاحا أكثر اتجاه والديه، ويبين لهما أنه في حاجة إليهما ومتوقف في حياته على وجودهما اليوم أكثر من أي وقت مضى. إن أمر المعالج للمريض بالقيام بهذا النوع من السلوك يجعل يجعل هذا ا الأخير يتصرف "كما لو" كان يعيش ويتصرف في واقع آخر غير ذاك الذي بناه هو نفسه (لم يعد الآخرون هم الذين يديرونه بل هو الذي يديرهم). فبتصرفه مثلا "كما لو" أن مشكله كان شيئا آخر غير الذي يعيشه يساهم في بناء واقع آخر، ومن ثم يكون له سلوك آخر لأن معنى هذا الأخير تغير. إن هذه الوصفة العلاجية المتمثلة في الإيعاز المناقض جعلت الشاب يدرك أن سلوكه شيء يمكن التحكم فيه وضبطه لصالحه. وذاك ما حدث بالفعل، إذ أنه بمجرد وقوع أول شجار بين الأم وابنها، غضبت الأم وصاحت في وجه ابنها أنها ملت هذا الوضع: ملت أن تكون سائقه وأن تكون دائمة الاهتمام بقضاياه (نلاحظ كيف أن سلوكه أخذ معنى جديدا) فحددت له قدرا ماليا شهريا يدبر به أمره بنفسه...فنجح الابن في توفير ما يكفي لشراء سيارة و التمتع باستقلالية أكثر...

3. 4- الإدراك العلمي قضية سياقات نظرية

إن بروز المعنى من خلال " الوضع في إطار العلاقة" une mise en relation ظاهرة عامة. وهو أمر نجده أيضا في المعرفة العلمية. فكل علم يهدف إلى عقلنة الظواهر التي تدخل في مجال تحليله. وتنشأ العقلنة العلمية أيضا من المعنى المشترك. فالمعنى (ومن ثم العقلنة العلمية) يولد من مواجهة ما نسميه "الواقع" مع مجموعة معينة من المراجع التي تتم العودة إليها قصد فك الرموز. ويمثل ما يسمى بـــ " إبدال"le paradigme الذي يستخدمه الباحث واحدا من المراجع الأساس المؤسسة لهذا الإدراك للواقع قصد تحويله إلى "تمثلات علمية" . فالإبدال أو (البارادايغم) هو مجموعة من العناصر الإبستمولوجية النظرية والمفاهيمية المنسجمة "التي تشكل إطارا مرجعيا لفئة الباحثين في هذا الفرع

العلمي أو ذاك"(8). فمن خلال مواجهة "الواقع" المدروس بعناصر إبداله المرجعي، يُبرز الباحث فهما للظاهرة ويعطيها معنى. فمكانيزم الوضع في السياق العلائقي إذن هو واحد في جميع الحالات.إن هذا التسييق بواسطة الإبدال يخلص إلى تكوين تمثل للواقع، وهو تمثل يحمل بصمات توجيهات الإبدال. فإذا كان الإبدال ذا توجيه ميكانيكي فإن الفهم سيكون ميكانيكيا، وإذا كان نسقيا فالفهم يكون كذلك...من هنا نفهم الأهمية المعطاة حاليا لتفسير الإبدال ونماذج المرجع العلمية في الدراسات العلمية(9).

1- السياقات المختلفة المكونة لوضع تواصلي.

4. 1- البحوث في مجال علوم الاتصال وضحت مختلف السياقات لوضعية ما.

إن هذه السياقات (أو أبعاد كل وضعية) التي نعرض لها ليست نابعة من تحليل مسبق لـــ"البنية الأساس" للأوضاع الإنسانية، مع العلم أن تحليلا ظاهراتيا جيدا يمكنه أن يوصلنا إلى ذلك. لقد عبرنا عنها في مقالاتنا ومؤلفاتنا السابقة انطلاقا من السيرورات التي أشار إليها الباحثون في مجال التواصل أنفسهم(10). فكل الأعمال عن الإبلاغ الحيزي la proxemie مع E. HALL، وكذلك الأعمال في مجال علم نفس الطفل (WALLON) أو في مجال علم النفس الاجتماعي [ARGYLE]، ولقد بينيت أعمال كوفمان نفسه، أهمية المجال وأشكال التدخل في تأثيراتها على التواصلات ودلالاتها. وهذا ما يصدق على الأبحاث في علم الأخلاق الحيوانية وبالأساس الإنسانية بدءا منLORENZ و TINBERGEN إلى CYRULNIK مرورا بـــ BIRDWHISTEL وأعماله حول الترويض الطبي، فقد ركزت هذه الأعمال في مجال التواصل على أهمية عوالم الإحساس وكل ما يتعلق بها. إن هذه الأعمال الإيتولوجية أبرزت أيضا مفهوم "تسلسل" الأنشطة و"لقطات التبادل" « séquences d'échange » (بالخصوص أعمال EIBL- EIBESFEDT) لتوضيح أهمية البناءات الزمنية والمعنى المأخوذ عبر التنظيم الزمني للأفعال. وبنفس الطريقة أبرزت مدرسة الفنومينولوجيا الاجتماعية الإنجليزية لـــLAING الجهود التي يقوم بها كل الفاعلين من أجل "موضعة" الآخرين في هويات "تلائمها" وتسمح لهم بلعب أدوارها العلائقية الخاصة بها (ولنعد هنا إلى أوصاف الطرق التي تعتمدها عائلات الذهانيين في تحديد الهوية "المرضية"لأبنائها. وهذا ما ركزت عليه أيضا كل أعمال مدرسة بالو آلتو من خلال حديثها عن ظاهرة "بنينة العلاقات" « la structuration des relations »، التي أصبحت أحد السياقات الأساس التي يتخذ فيها التفاعل معنى. وهو نفس الشيء بالنسبة لأعمال علماء النفس التي ركزت منذ أمد بعيد على ظواهر الرقة و

التعاطف (أعمال ميزونوفmaisonneuve) وأصل هذه الأشكال العلائقية (أعمال نيوكومبNewcomb) مشيرين إلى الوجود الذي لا يمكن نكرانه لهذا البعد "النوع" « qualité » la dimension للعلاقة المقامة بين الفاعلين. وذاك هو شأن أعمال علماء الإجتماع وعلماء النفس الإجتماعي والإنتروبولوجيين، التي أشارت إلى الوجود الدائم لمرجعيات معيارية لكل الأفعال الإنسانية، حتى بالنسبة لتلك التي تعتبر عادية في الحياة اليومية. ولقد بينت السوسيولوجيا الفينومينولوجية (أعمال Berger و Luckman) وسوسيولوجيا الفردانية المنهجيةla sociologie de l'individualisme méthodologique (أعما ل Boudon) أهمية الفاعلين ونواياهم ومشاريعهم في ظواهر التواصل مشيرين إلى وجود هذه المرجعيات الذاتية للفاعلين أنفسهم.

4. 2) نمارس التفكير حاليا من خلال سبعة سياقات

إن السياقات لتي يجب علينا أخذها بعين الإعتبار متعددة. هناك السياق الفضائي (ما يقال يستمد معناه بالنسبة لوضع المكان وإكراهاته)، السياق الفيزيائي والحسي (ما يقا يستمد معناه بالنسبة لمجموع العناصر الحسية التي تصل إلى مختلف الحواس: البصر والسمع والذوق والشم واللمس)، السياق الزمني ما يقال يستمد معناه بالنسبة لما سبقه من كلام)، سياق أوضاع الفاعلين المتدرجة (ما يقال يستمد معنى بالنسبة لمواقع الفاعلين بالنسبة لبعضهم البعض)، سياق العلاقات الإجتماعية الآني (ما يقال يستمد معناه من نوعية العلاقات القائمة بين الفاعلين، و يستمد معناه داخل كل النظام التفاعلي الذي تم تأسيسه)، السياق الثقافي أو الاستبطانات الثقافية المتمثلة في المرجعية والقواعد والمعايير المشتركة جماعيا(ما يقال يستمد معناه من للقواعد الموجودة أو التي تم إنشاؤها أثناء عملية التبادل)، سياق التعبير عن هويات الفاعلين (ما يقال يستمد معناه مما نعرفه عن الفاعلين المتواجدين أو ما يظهرونه من نوايا).

كل هذه السياقات تكون حاضرة في الوقت نفسه. فالمعنى العام للفعل هو حصيلة دلالات فعل التواصل ضمن هذه السياقات. ويظل مشكل الكشف عن "السياق الأكثر ملاءمة" (التأطير) بالنسبة لمختلف الفاعلين قضية هامة في العلاقات الإنسانية، كما أشار ت إلى ذلك مدرسة بالو آلتو.

4. 3- السياقات والدلالات

ويمكن القول، من موقف بنائي، إن السياقات لا تساهم في صنع الدلالة فحسب، بل إن السياقات والدلالات ذاتها تبنى من خلال هذه التبادلات. فهي ليست إذن "معطيات" بل "انبثاقات".

فالمعنى ينبثق عن الأشكال الموضعية التي تدور فيها الأنشطة، والتي اشترك الفاعلون المتواجدون في بلورتها. "فهو ليس معطى مسبقا مخزونا في بنك للمعطيات مشترك بين الجميع و يمكن إخراجه عند الطلب"(11). إن " المعطى" أو التواصل كمعطى ليس له، حسب نظرية سيرورات التواصل، إلا أهمية قليلة. فهو يستمد معنى بالنسبة لفاعل خاص : ذاك الفاعل الذي يتجه نحوه ويدرجه كتواصل حاسم في مجال اهتماماته ونواياه، وذلك بوضعه في سياقات يعتبرها مناسبة له. وعليه يمكن أن يكون لـــ " نفس المعطى" دلالات مختلفة حسب اهتمامات ونوايا الفاعلين.

إن "محركا يشتغل بقدر قليل من البترين" يعني فرصة تجارية ممتازة بالنسبة لصانع السيارات الذي يبذل ما في وسعه لشراء براءة الاختراع، وهو في الوقت نفسه يشكل "خطرا على انخفاض المداخيل" بالنسبة للدول المنتجة للبترول".

يشير هذا المثال إلى سياقات متعددة : سياق أول يخص صانع السيارات، وثان يتكون من منتجي البترول. هذان السياقان منفصلان وقد اختزلا في سياقين ذاتيين من أجل الحاجة للتوضيح. إننا نتحدث بالتتابع عن المعنى بالنسبة للفاعل الأول، وكذلك عن المعنى بالنسبة للفاعل الثاني. إذا أعدنا وضع "المعطى" في السياق العام المعقد لظهوره الأول (لأنه يجب كذلك تحديد السياق الزمني)، فإنه ينبثق عندئذ معنى معقد ناجم عن تراكب المعاني السياقية: اختراع مثير للجدل- وربما يؤدي إلى صراعات- والذي سوف يشكل موضوع نشر أو إبطال تفعيل بالنسبة للمختلف الفاعلين المعنيين.

لا توجد المعلومة باعتبارها معنى لشيء ما (خطاب، نص، صورة، سلوك...) المحمولة من شيء ما (خطاب، نص، صورة، سلوك...) إلا بتسييقها بالنسبة للفاعلين. إن نظرية سيرورات التواصل تقترح أن يُعطى الإهتمام لا للمعلومة وانتشاراتها وانتقالاتها أو تحولاتها، إنما تعطى للعمليات التواصلية التي أدت إلى تفضيل هذا المعنى. وفي منظورنا، وبناء على مفاهيم السيرورة، فإن ظاهرة تواصلية تُدرك كجزء من نظام شاسع مكون من أنظمة جزئية تغيرها "السياقات"مما يؤدي إلى تغيير الكل، ومن ثم الوقوف على "المحصلة" أي على المعنى النهائي لظواهر التواصل.

4. 4)سيرورات التواصل هي أيضا وفي نفس الوقت سيرورات التسييق

إن سيرورات التواصل، على هذا الأساس، تتدخل من أجل تغيير أبعاد " السياق العام"، وهذه الأبعاد هي: 1) البعد المكاني، 2) الفيزيائي والحسي، 3) الزمني، 4) بعد الموقع، 5) البعد العلائقي، 6) البعد المعياري، وأخيرا البعد الذاتي (أو بعد الهوية). ويمثل كل بعد من هذه الأبعاد واحدا من أبعاد كل "سياق عام" تدرج في إطاره ظاهرة تواصلية. فمن خلال التدخل في مختلف هذه السياقات، يعمل

الفاعلون على تغييرها ومن ثم يساهمون في بناء المعنى لتبادلاتهم، ذلك أن المعنى ينشأ من وضع الظواهر التواصليه في سياقها.

ختاما يمكن القول إن المعنى يتولد دائما من مواجهة "التواصل" بعناصر سياقية. فهو ينشأ دائما من تسييق شيء من لدن شيء لآخر. فالتأويل يجد جذوره المتعددة في سيرورة السياقات المختلفة. والوضع في السياق يمكن أن يتم بطرق متعددة، يمكن أن يكون متعددا وأن يكون الوضع المرجعي للفاعلين مختلفا، ومن ثم تكون الدلالات مختلفة كذلك. فـــ "المعنى المشترك" لن يظهر في الحال ويجب الكشف عنه من – وعبر- التبادلات التي تكون في غالب الأحيان ميتاتواصل des métacommunications. بهذا المعنى فإن دراسة الوظيفة المفصلة لـــ "سيرورات التواصل" تبين لنا كيف أن كل تواصل هو كذلك دوما ميتا تواصل.

---

*) عنوان الفصل الأول من كتاب Alex MUCCHEIELLI, Jean Antoine CORBEAU, Valery FERNANDEZ, Théorie des processus de la communication, Armand Colin, Paris 1998, p.p. 13 - 23

1- O. DUCROT, « l'énonciation », Encyclopédia Universalis. Tom 2, 1996. p1-1

2- GUMPEZ, Engager la conversation, Introduction à la sociolinguistique, ed. de Minuit ,1989,p.134.

3- Ph. BRETON, « L'argumentation », Sciences Humaines, »La communication, état des savoirs », Hors séries no 16, mars/avril 1977, p/ 59-62.

4- S. AUROUX, « je/ comprendre/ vous »,Le monde de l'éducation, no 249, juin 1997, p . 22- 24.

5- WEAKLAND, « somatique familiale, une marge négligée », in Sur l'interaction , P. Watzlawick et al.,Seuil, 1981, p.456.

6- P.WATZLAWICK et al, Une logique de la communication, Seuil, 197 2, p. 15.

7- P. WATZLAWICK (sous la dir. De), Sur l'interaction, Seuil, 1991.

8- T.S. KUHN, (1962) ? La structure des révolutions scientifiques ? Flammarion ? 1972. هذا التعريف هو لـــ

9- في ما يخص علوم الاتصال نحيل إلى كتاب: Nouvelles méthodes d'étude des communications الذي يذكر مختلف نماذج التواصل المستعملة ومختلف أشكال الفهم الممكن للظاهرة.

10- عن هذا الموضوع يراجع,A. MUCCHELLI, Les situations des communications, Eyrolles, 1991 وكذلك Les sciences de l'information et de la communication, Hachette, 1995, الفصل الثالث من

11- VARELA, Connaître les sciences cognitives, tendances et perspectives, Seuil, p. 114 1990,